

العولمة وأثرها على التعليم العالي

سلوى بنت محمد المحمادي

أستاذ مساعد بكلية التربية للبنات بمكة المكرمة - جامعة أم القرى

تخصص العقيدة والمذاهب المعاصرة

ملخص الورقة: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، واشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا وعلى أصحابه. أما بعد.

فإن المعرفة العلمية في الوقت الراهن آخذة في التغيير بسرعة كبيرة، وإذا كانت تحديات العولمة تثير العديد من المشاكل على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فإن التحديات التي تواجه التعليم العالي في بلدان العالم الثالث هي الربط بين الاحتياجات الوطنية وبين مساندة أشكال وصيغ التقدم الدولي في الميدان العلمي، خاصة وأن سوق البحوث العلمية - بفعل العولمة أصبح أكثر تنافسية في الدول المتقدمة، ولا وجود لجامعاتنا الوطنية في هذا السوق، وهو ما سيجعل جامعاتنا متخلفة عن الركب ما لم يتم تدارك الأمر والتفكير في تطبيق استراتيجيات جديدة للنهوض بمستواها العلمي وإدماجها في معركة التنمية الوطنية بكل أبعادها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ويأتي موعد انعقاد "المؤتمر الثاني لتخطيط وتطوير التعليم والبحث العلمي في الدول العربية" المقرر إقامته في رحاب "جامعة الملك فهد للبترول والمعادن" في وقت نحن بحاجة ماسة إليه ، وبالنظر في محاور المؤتمر المطروحة للمناقشة أحببت المشاركة بورقة عمل في محور (العولمة وأثرها على التعليم العالي) وقد وقع اختياري على هذا المحور لعدد من الأسباب:

١- تشكل العولمة ضغطاً على التعليم العالي وتجعل الإصلاح عملية ضرورية

٢- أصبحت عالمية المناهج الأكاديمية جزءاً من التقدم المطلوب لخططنا الدراسية وتطوير البرامج

٣- في ضوء التطورات التكنولوجية، فإن الجامعات التقليدية لم تعد وحدها المصدر للتعليم العالي، فظهرت جامعات جديدة للوفاء بالقيم والاحتياجات للطلبة، وتعليمهم بكفاءة أعلى وفي برامج وموضوعات لها علاقة باحتياجات سوق العمل، وبخاصة بعد أن تركت الحكومات لعامل السوق حرية العمل. ونتيجة خفض الإنفاق الحكومي على التعليم، تحول التعليم من كونه سلعة عامة، أي خدمة عامة إلى خدمة عن طريق السوق تحكمها قوى العرض والطلب، وأصبح مستقبل ووضع الجامعات مهدداً وغير مضمون.

٤- أدت العولمة إلى وجود جامعات أجنبية عالمية داخل البلدان النامية مما زاد من حدة المنافسة للجامعات الوطنية

والتفوق عليها مثل الجامعات المفتوحة، والتعليم عن بعد، والجامعات الافتراضية التي تكون تكلفتها أقل من الجامعات التقليدية

وإني سألني الضوء على معنى كلمتي "العولمة"، " والتعليم العالي"، وما أثر الأولى على الثانية من الناحية الإيجابية

والسلبية؟ وفي الختام : أذكر موقفنا الإسلامي من العولمة

أسأل الله التوفيق والإخلاص في العمل

المقدمة

في مطلع هذا - القرن الحادي والعشرين - برزت ثلاثة تحديات رئيسة لتواجه مؤسسات التعليم العالي وهي:

١. العولمة الاقتصادية.
٢. الأهمية المتزايدة للمعرفة.
٣. وثورة المعلومات والاتصالات .

وهذه التحديات الثلاث تنبئ بتغيرات جذرية في عدد من مجالات التعليم العالي.

فشغلت إستراتيجية التعليم العالي في ظل العولمة الأوساط الأكاديمية طوال السنوات الماضية عندما بدأ الإعداد للاستراتيجيات الوطنية للتعليم العالي للبلدان المتقدمة والنامية على حد سواء للارتقاء بأداء الجامعات من أجل مواجهة تحديات العولمة إذ أنها تشكل ضغطاً على التعليم العالي، وتجعل الإصلاح عملية ضرورية. وقد أصبحت عملية المناهج الأكاديمية جزءاً من التقدم المطلوب لخططنا الدراسية ولتطوير البرامج. وأخذت برامج الجامعات العالمية وخاصة في مجال الأعمال تتقدم بسرعة.

ومع ازدياد المعرفة العالية وفعالية طرق الاتصال، فإن الدول التي كانت معزولة بفعل صعوبة الاتصالات ونقص المعرفة أصبح من السهل عليها الحصول على المعلومات والاتصال والقيام بالأعمال إلكترونياً . ومع تطور تكنولوجيا الاتصالات ، أصبح لدينا مجموعة من الأدوات لاستخدامها في التعليم فلم نعد بحاجة إلى الاعتماد الكلي على تحريك الطلبة والأساتذة حول العالم، فبإمكاننا الاستفادة من وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة لزيادة التعاون بين الدول ، وأصبح بالإمكان اشتراك الطلبة في كثير من دول العالم للدراسة معاً في صف واحد دون مغادرة منازلهم. وقد أصبحت هناك مؤسسات عالية للاستثمار تطمح في بيع المعلومات. وبهذا يتم التثقيف عالمياً بهدف تشكيل العالم.

والعولمة في التعليم العالي أدت إلى نقطة التقاء وتحول داخلي وبخاصة في منظومة المعرفة العالمية وتمركز الأفكار والموارد. ومع تقدم تكنولوجيا المعلومات فإن قوى العولمة قد غيرت مفهوم الوقت والفضاء وأصبحت الجامعات تدار عبر مدارات أو حدود فضاءات مؤقتة.

فماذا نحن فاعلون أمام هذه التحديات العاتية؟ وهل بمقدور جامعاتنا مسيطرة الركب الحضاري العالمي، وتحقيق الأهداف السامية والخطط الطموحة والمصالح العليا لهذا الوطن الغالي؟

قبل الإجابة على هذا التساؤل أود إلقاء الضوء على معنى العولمة، والتعليم العالي، وما آثار العولمة، وما موقفنا الإسلامي منها.

معنى العولمة:

لا بد من الإشارة إلى أن أغلب التعريفات الاجتهادية الرامية إلى تبيان مفهوم دلالة العولمة لم تبلغ مبتغاها ومرماها الأساسي بعد. وقد تعددت إلى ما يلي:

١. البعض من تلك الاجتهادات اقتصر على وصف هذه الظاهرة على أنها عملية أمركة العالم، أي نشر الثقافة الأمريكية بحيث تغلب على المجتمعات الثقافية الأخرى.

٢. يراها البعض الآخر على أنها الوجه الآخر للهيمنة الإمبريالية على العالم تحت الرعاية المنفردة للولايات الأمريكية فهي أبشع وأحدث صور الهيمنة الاستعمارية، وثمة من ينظر إليها بمنظور أوسع ملخصة أن العولمة تمثل عملية رسملة العالم، أي أن العولمة عملية يراد منها نشر مبادئ النظام الاقتصادي الرأسمالي وفرضه على عامة الأساليب الاقتصادية التي تتبعها المجتمعات الأخرى (العولمة الاقتصادية).

٣. يذهب فريق ثالث للقول بأن العولمة ظاهرة تنحو بالمجتمعات الإنسانية قاطبة نحو التجانس (التشابه) الثقافي وتكون الشخصية العالمية ذات الطابع الانفتاحي على ما حولها من مجتمعات وثقافات مختلفة (العولمة الثقافية وثقافة العولمة) ويعول أنصار هذا الفريق على جملة التطورات الهائلة الحادثة في قطاع الاتصالات والمواصلات بين المجتمعات الإنسانية المختلفة والتي أسهمت بشكل كبير في نشر ثقافات المجتمعات بخاصة المتقدمة والتي ترنو المجتمعات النامية بلوغ مستوى تطورها الصناعي والاقتصادي والعلمي (١).

وعلى كل فالعولمة كلمة جديدة، وهي مصطلح حديث لم يدخل بعد في القواميس السياسية والاقتصادية، وفي الواقع يعبر مصطلح العولمة عن تطورين هامين هما:

١. التحديث (Modernization).

٢. الاعتماد المتبادل (Interdependence)، ويرتكز مفهوم العولمة على التقدم الهائل في التكنولوجيا والمعلوماتية، بالإضافة إلى الروابط المتزايدة على كافة الأصعدة على الساحة الدولية المعاصرة.

لقد ظهرت العولمة أولاً كمصطلح في مجال التجارة والمال والاقتصاد، ثم أخذ يجري الحديث عنها بوصفها نظاماً أو نسقاً أو حالة ذات أبعاد متعددة تتجاوز دائرة الاقتصاد فتشمل إلى جانب ذلك المبادلات والاتصالات والسياسة والفكر والتربية والاجتماع والأيدولوجيا (٢) فالعولمة ظاهرة فرضت نفسها على المستوى الدولي، أحيينا أم كرهنا...

أما التعليم العالي فهو عبارة عن: مرحلة تعليمية مكتملة للمراحل التعليمية السابقة، ويقصد به كل أنواع التعليم الذي يلي المرحلة الثانوية أو ما يعادلها، ويهدف إلى تنمية فكر ومهارات وقدرات الطالب في العديد من المجالات؛ ليتمكن بعد تخرجه من الإسهام في المسيرة التنموية للبلاد. وبدون شك فإن العالم استفاد من التقنيات الحديثة في التعليم وأن الشعوب تتسابق في الابتكار والحصول على الوسائل الحديثة في التعليم ومن هذه التقنيات هي الحاسب الآلي وشبكة الإنترنت ويمكن التعرف على المعلومات والبيانات باستخدام الإنترنت، والعالم يتجه نحو التعليم الإلكتروني والاستفادة منه والحصول على الشهادات التعليمية في مختلف المراحل كذلك بفضل الاتصالات العالمية استحدثت مفاهيم علمية جديدة مثل:

١. التعليم من بعد: بواسطة الكمبيوتر و ربطه بالإنترنت أصبحت بعض المدارس والمعاهد والجامعات تعطي شهادات معتمدة من قبل المؤسسات التعليمية التي اعتمدت التعليم من بعد وهذا من الإفرازات التقنية الحديثة .

(١) العولمة من منظور شرعي، عمار حيدل، عبدالحميد الصالحين، عبدالكريم وريكات، الأردن، دار مكتبة الهمام للنشر والتوزيع، ص (١٠-٢٢).

وانظر: المضامين الاجتماعية للعولمة، لبت عبدالمحسن حواد، مجلة دراسات، السنة الأولى، العدد الرابع ١٩٩٩م، ص(٤٦) والعولمة واحترق السيادة، نداء مطر صادق، المرجع السابق، ص(٦٠) والعولمة واحتمالات المستقبل، شفيق الطاهر، مجلة دراسات العدد الأول ١٩٩٩م، ص (٧-١١).

(٢) العولمة، صالح حسين الرقب، غزة الجامعة الإسلامية، ص (٦).

٢. التجارة الإلكترونية: لم يعد الحصول على سلعة أو بضاعة أن تذهب إلى المحل التجاري أو شراء أو بيع أسهم أو تسديد فواتير أن تذهب للبنك و بفضل التجارة الإلكترونية و الإنترنت تعمل هذه العمليات و أنت في منزلك .
٣. الحكومة الإلكترونية: يمكن إنجاز أي عملية أو مهمة مثل معاملة رسمية (حكومية) مثل: الحصول على شهادة ميلاد أو وثيقة رسمية و أنت في منزلك من خلال شبكة الإنترنت ، من غير أن تقف في طابور و تنتظر دورك .
٤. المدرسة أو الجامعة الإلكترونية: دول كثيرة شرعت في إعداد مناهجها بالكمبيوتر والتعليم والشرح وكل مايتعلق بالتعليم ودروس التقوية يحصل عليه الطالب من شبكة الإنترنت أو أسطوانات ليزر وكذلك الحصول على الشهادة الدراسية.
٥. القنوات الفضائية التعليمية: التعليم من القنوات الفضائية بدأ ينتشر و هناك قنوات فضائية تعليمية متخصصة تعرض الدروس في المراحل الدراسية و الجامعية مما سهل على الطالب على دروس تقوية و اعتماد شهادات من تلك القنوات الفضائية التعليمية و هي تابعة لمدارس و جامعات.
٦. ثورة الاتصالات الحديثة: و نتج عن هذه التطور الرهيب في وسائل الاتصالات الحديثة مفاهيم حديثة علمية و طبية مثل طب الاتصال، وهو التعلم و العلاج عن بعد و حدث تغيير كبير في الأجهزة الإلكترونية حتى أصبحت موسوعات علمية و كتب و صور و معلومات و بيانات في قطعة إلكترونية صغيرة لا تتجاوز (١) سنتيمتر مربع. وبادئ ذي بدء أحب أن أركز على إيجابيات العولمة ثم على سلبياتها.

فإيجابياتها:

١. تسهم في انتشار التكنولوجيا الحديثة من مركزها في العالم المتقدم اقتصادياً إلى باقي أنحاء العالم، ومن ثم زيادة الإنتاج وزيادة واضحة.
٢. التعامل معها يعني مواكبة تطورات البحث العلمي لحظة بلحظة من خلال الارتباط العضوي بشبكات الاتصال الانترناتية الدولية.
٣. أنها تمكن من استيعاب الاستكشافات البحثية والتكنولوجية والنظريات الفاعلة والتي أحدثت تحولاً عميقاً بل وحب القول ثورة هادئة وعجيبة جداً في المعالجة والفهم والآليات والممارسة.
٤. العولمة تمكن من معرفة التيارات الفكرية الدولية عبر انتظام إلقاء ونشر نتائج بحثها بواسطة البث الإلكتروني وغيره من الوسائل التكنولوجية الحديثة.
٥. العولمة تعني الوصول إلى بنوك المعلومات المختلفة طبعاً إذا فتحت ، والحصول على المعلومات الأرشيفية المتعلقة بتاريخنا وحضارتنا وواقعا السياسي والاقتصادي والمعرفي، وتلك هي أكبر الخدمات التي يوفرها الانترنت، باعتباره القناة الجديدة لاختصار الزمن والوقت والمال للباحث الجامعي ؛ ليعيش عصره، والثورة الاتصالية الإلكترونية(٣).

(٣) موقع المشكاة الثقافي بعنوان: تداعيات العولمة على التعليم العالي في البلاد العربية عبدالحليل التميمي ٢٨/٥/٢٠٠٥.

والجدول الآتي يبين مستخدمي الانترنت لكل ألف شخص في بعض الدول.

الدولة	مستخدم الانترنت / ١٠٠٠ شخص
كندا	٧٠٩
الولايات المتحدة الأمريكية	٨٠٦
الكويت	٣٧٣
مصر	١٢٦
لبنان	٣٥٥
الجزائر	٦٨
عمان	٨٤

٦. تستطيع العولمة إفادة البلدان النامية من مخرجات التعليم العالي، حيث إن المشكلة في دول مثل: مصر والأردن على سبيل المثال أن هناك عدداً كبيراً من خريجي الجامعات ولكن لا توجد وظائف لهم في سوق العمل، وهكذا فإن سوق العمل المحدود، والفشل في الاتصال في قنوات التجارة العالمية أدى إلى ركود اقتصادي وعزله في المنطقة، والمعالجة تكمن في إقامة تخصصات مستقبلية لمواجهة احتياجات السوق المحلي تتلاءم مع احتياجات السوق العالمي.

إن التوليف بين العولمة والتعليم العالي سوف يفرز الفرص حياة أفضل فعلى سبيل المثال فإن الهند استفادت من العولمة عن طريق بناء صناعة هندسة البرمجيات ، وتدريب مهندسين في البرمجيات وأقامت صناعات خدمية وشركات ومشاريع وفرت فرص عمل لحوالي (٨٠) ألف شخص في صناعة التكنولوجيا العالمية(٤).

٧. تسهم إسهاماً واضحاً في نقل المعلومات وتخزينها وتوفيرها لمن يريد الانتفاع بها .

إلا أن هناك تياراً مضاداً في عالمنا العربي ركز على سلبات العولمة واعتبرها:

١. نظاماً استعماريًا أي مشروعاً للهيمنة وإعادة رسم الخريطة الجغرافية لطمس الهوية العربية والتخلص من المشروع النهضوي العربي.

٢. العولمة الثقافية المعرفية كما يؤكد هذا الفريق المعارض، هي تعميم الثقافة الأمريكية، وهي نفسي للآخر وتبرير للاحتراق حتى يهشم.

٣. العولمة لدى الأصوليين الإسلاميين، هي الكفر بعينه، لأنها آمنت بالعلمانية، وهذا في نظرهم يضر بفلسفة الحياة، إذ العولمة معادية للدين والعقيدة والهوية الثقافية. وعموماً فإن هذا الفريق المضاد يرى أن العولمة هي القهر والارتباط والاستتباع الحضاري الفكري، أمام التقدم التكنولوجي، وهي فعل اغتصابي وعدواني على سائر الثقافات.

(٤) جريدة النأحي إستراتيجية التعليم العالي في ظل العولمة أ. د سليمان عربيات.

وأكد مثل هذا التوجه بعض المنظرين العرب من أن العولمة هي أيديولوجية تعكس الهيمنة على العالم، وأن خلفياتها البعيدة، قضت بإفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى، الأمر الذي سيؤدي حتماً إلى التفتت والتشتت بعالم اللاحق والألمة واللا دولة، وهو ما أطلق عليه ثقافة الضحية *Culture de la victime*.

٤. مزاحمة المؤسسات التعليمية العلمانية الغربية للمؤسسات التعليمية المحلية في البلدان الإسلامية بعد مرحلة الانفتاح والتقارب بين الشرق والغرب والتوسع في مجالات الاستثمار التي يعتبر التعليم أحد تلك المجالات والتي أصبح لها في عصر العولمة شأن كغيرها من القطاعات الخدمية التي يتم عولمتها كما هو الحال في فتح أفرع للجامعات الأمريكية في بلدان المشرق العربي وإفريقيا وآسيا. وهذا يتيح الفرصة لتغريب أجيال الأمة وإبعادها عن ثقافتها الأصلية. وتعطى هذه المؤسسات مميزات لا توجد في غيرها مما يؤدي إلى رغبة الأساتذة في الانضمام إليهم، وتسربهم من الجامعات الوطنية؛ لتحقيق رفاهية أكثر في ظل الطفرة التي تشهدها الموارد المالية وقطاعات التعليم العالي ليتحقق للأستاذ الجامعي مكانته الاجتماعية والوظيفية التي يطمح إليها.

٥. هناك آثار صحية ضارة يورثها التعامل مع التقنيات الحديثة أثبتتها الدراسات العلمية ، ونجدها دائماً في النشرات التقنية التي ترافق دليل استخدام تلك التقنيات والتعامل معها. منها ما يؤثر على البصر، ورسغ اليدين، وخلايا الدماغ، زيادة الوزن لقلة الحركة.

٦. تنامي الشعور لدى الطلاب بإمكانية الاستغناء عن المدرسة.

٧. انتشار مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

٨. منح المزيد من الحريات للمتقنين (وهو سلاح ذو حدين).

٩. تنامي ظاهرة النشر الإلكتروني حيث أصبحت أحد أهم العوامل المؤثرة على الثقافة العربية وخصوصياتها حيث تشير أحدث الدراسات التي قامت بها اليونسكو إلى أن التجارة العالمية في السلع والمحتويات الثقافية (الموسيقى والفنون التشكيلية، وأفلام السينما وأجهزة الفيديو والتلفاز) تضاعفت من ٦٧ مليار دولار عام ١٩٨٠ إلى (٢٠٠) مليار دولار عام ١٩٩٧م (٥).

وقد ذكر الدكتور/ عبدالله بوظانة، مدير مكتب اليونسكو والممثل الإقليمي لدى الدول العربية في الخليج في دراسة له إن تأثيرات العولمة على منظومات التعليم العالي ستستهدف جميع متغيراتها بدءاً من السياسات والأهداف وانتهاء بالإدارة والتسيير والتمويل.

إن احتمالات المستقبل تؤكد أن نوعية وكفاءة التعليم العالي العربي سوف لن يتم تحديدها على المستوى الوطني إنما سيتم تحديدها طبق أنماط ومعايير دولية لا بد أن نلتزم بها.

وستفرض العولمة ضرورة إعادة صياغة محتوى المناهج وطرق التدريس ونوعية الإدارة والتمويل وهذا سيؤدي إلى تقليص دور الدولة في تقديم هذه الخدمات ومن الممكن أن تسيطر الشركات العابرة للقارات على هذا المشروع.

(٥) العولمة وانعكاساتها على الوطن العربي ، ورقة عمل مقدمة إلى المنتدى التربوي الأول لمواد الجغرافيا والاقتصاد والدراسات الاجتماعية وعلم النفس الفخيرة ٢٩-٣٠-٢٠٠٤م إعداد غالب أحمد عطايا.

إن أول ما تحتاجه المؤسسات العاملة في حقل التعليم العالي هو المزيد من المرونة والتفاعل لمواجهة تلك التحديات ويمكننا تحقيق المرونة والتفاعل باستخدام برامج جديدة وتخصصات حديثة إلى جانب إعادة النظر في البرامج الحالية وصياغتها، إذ يمكننا الاستغناء عن البرامج التي لا تتواءم مع متطلبات العصر.

وهنا نجد أن إجراء البحوث التطبيقية وتطوير الدراسات العليا ومواكبة سوق العمل ومستجدات العصر تتطلب أموراً لا بد منها مثل: آليات التغذية الراجعة الهادفة كالدراسات المسحية التتابعية، والمشاركة المنتظمة في اتخاذ القرارات بالتعاون مع القياديين وأعضاء هيئة التدريس والطلاب والخريجين والاستفادة من الخبرات والتجارب العالمية وهذا لا يتسنى للمؤسسات التعليمية العالي إلا بالتخلي عن الجمود والتفوق والانكباب على الذات.

وخلاصة القول: إن تحديات العولمة، والنمو الاقتصادي المبني على المعرفة وثورة المعلومات والاتصالات تشكل تحديات وامتحانا لنا، ولكنها في الوقت نفسه فرص عظيمة لا بد لنا من استقلالها ومواجهتها وذلك بأن نبادر في الإصلاحات وإعداد الخطط التطويرية اللازمة لمؤسسات التعليم العالي وفي غياب ورقة عمل موحدة ننظم كل هذه الأمور، يمكننا صياغة رؤية واضحة لكيفية مناسبة تعضد أنظمة التعليم العالي ومؤسساته وتمكنها من الإسهام في بناء الوطن وتطويره، ومن ثم التماس ووضع آلية عملية لتنفيذ هذه الرؤية بحيث تراعي خصائص كل مؤسسة.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن التكيف مع البيئة المتغيرة ليس محصوراً في إعادة تشكيل مؤسساتنا الجامعية وتطبيق التقنيات الجديدة تبعاً لمستجدات العولمة فحسب بل لا بد معها من التأكيد على التمسك بالقيم الدينية السمحة.. على أن هذه التدابير جميعها هي القادرة - بعد الله - على إنهاء تلك المؤسسات المهمة تفعيلاً وتطويراً ومواكبة (٦).

والتساؤل الذي يفرض نفسه الآن، ما هو وضع التعليم العالي العربي تجاه ظاهرة العولمة وتداعياتها المختلفة عليه؟

بادئ الأمر نشير إلى أن عدد الكليات والجامعات في البلاد العربية بلغ ٤٠٠ محدود سنة ٢٠٠٠م، بعد أن كانت في سنة ١٩٩٠م، بعدد ٢٨٠، وهي حتماً اليوم تتجاوز ٤٥٠ جامعة وكلية، إلا أن مع أسفنا العميق، لم تؤهل ولا جامعة عربية واحدة اليوم، لتكون ضمن ٥٠٠ جامعة متقدمة في العالم، من حيث فلسفة المحتوى التدريسي والمكانة التي منحتها للمعرفة والبحث العلمي والأساتذة المميزين. وحتى الجامعات المصرية الأعرق في عالمنا العربي، لم تستثن ولا واحدة منها، لتدرج ضمن قائمة الـ ٥٠٠ جامعة تلك! وهي حقيقة دامغة ومحزنة بل هي حزينة حقاً، إذا أخذنا في الاعتبار مدى التضحيات الجسام التي واكبت إنشاء الجامعات العربية خلال القرن العشرين. ولعل أهم ما يميز هذه الجامعات النموذجية الدولية هو استخدامها الموسع والكاسح لتكنولوجيات الإعلام والاتصال، إذ بقطع النظر عن محتوى العولمة الإيديولوجي والفكري، فقد نجحت في تجاوز المسافات بين الحضارات والشعوب، كذلك ومن نافلة القول إن الجميع قد انخرطوا فيها، بما في ذلك الحركات المضادة للعولمة عندما وجدت نفسها تستخدم التكنولوجيات الحديثة، وكان لهذه الظاهرة تداعياتها على مختلف الأصعدة، كنظرة الإنسان لذاته ولوقعه في الكون ولعلاقته مع الآخر.

(٦) منتدى حوارات الفاخرية: التعليم العالي وتحديات العصر، د. عبد اللطيف بن حمد الحليبي.

ولنطرح عدة أسئلة تتعلق بمدى انتشار استعمال الإنترنت في الفضاءات الجامعية، ومدى إعداد واستعداد هيئات التدريس للتعامل معها، ثم مدى استعمالها ومردوديتها في التدريس بالنسبة إلى الأساتذة والطلبة، وهم الذين لا يستفيدون من هذه القناة المعولة، إلا بنسبة أقل من عشرة في المائة فقط، لغرض التبادل العلمي والمعرفي مع بقية الجامعات والمراكز البحثية الدولية. لتعرض فيما يأتي إلى بعض المجالات التي أثرت عليها ظاهرة العولمة والتي يمكن من خلالها أن نستكشف مدى مواكبة الجامعات العربية للتطورات التكنولوجية المعولة أو عدمها!

- وبإدراك الأمر يتحتم علينا عدم مناقشة جدوى أو عدم جدوى تعميم استعمال العولمة على مستوى المؤسسات الجامعية، فتلك قضية محسومة أصلاً، وأن التردد في تعميمها أو التردد والتشكك في تبنيها، هو عين الخطأ الكبير الذي أصاب وما زال يصيب هيكلية التسيير الناجح للجامعات والمراكز البحثية العربية. بل إن هذا الأمر يبرز تأخرنا البين والمخجل. فالعولمة البحثية هي الوقود الحقيقي لمستقبل الجامعة، إذا أريد حقاً النهوض بهذا القطاع الحيوي وموقعته دولياً.
- علينا الاستفادة من الخدمات الانترنتية لتبني إستراتيجية معولة عربية، تقضي بالتواصل بين الجامعات والمراكز البحثية العربية فيما بينها ومع غيرها من الجامعات الدولية، والعمل على إعادة النظر في محتوى برامجنا التقليدية لهذا التدريس البائس اليوم وغير المخفز لتوليد المعرفة الحقة.
- وهناك ملف آخر ساحر ودقيق جداً إلى درجة الخطورة على مستقبل التعليم العالي العربي وهو المتعلق بإقامة الجامعات الافتراضية النموذجية، مثل ما تم اليوم في جامعة السوربون الفرنسية، وجامعة كامبريدج البريطانية، وجامعة هارفارد الأمريكية وغيرها من الجامعات الدولية الأخرى، عندما تبنت مناهج متقدمة جداً نقلت الحصيلة الاختبارية للمعرفة والبحث على الصعيد الدولي، وخططت إلى بناء العقول وفقاً لمنظومتها الحضارية. وهنا تحضرنى تلك الصرخة التي أطلقها أحد الوزراء الكنديين عندما لاحظ الأثر السلبي جداً للبرامج الأمريكية على النشء إلى درجة فقدانه جنسيته الكندية، ذاك أن صناعة الثقافة والفكر أخطر الصناعات الاحتكارية على الإطلاق. إن مقترح الجامعة الافتراضية العربية، لو تم تبنيه على مستوى البلاد العربية، فلسوف يحجم كثيراً الجامعات العربية التقليدية غير المواكبة تماماً، والتي أدت إلى تهميش الأساتذة والطلبة في الوقت نفسه. وعلى العكس من ذلك لو تم تبني مبدأ إنشاء ولو جامعة افتراضية نموذجية واحدة على مستوى البلاد العربية، من حيث اختيار المحتوى التدريسي وتأمينه من طرف رواد البحث العربي.
- وتماشياً مع تبني العولمة الفاعلة والبناءة على مستوى المؤسسات الجامعية العربية، يأتي ملف النشر العلمي المشترك سواء ما يتعلق بالدوريات الجامعية العربية أو الأطروحات أو غيرها من الكتابات العلمية المؤتقة، والكل على علم ودراية بالحال البائسة التي عليها النشر الأكاديمي العربي عموماً، والذي لا يشكل إلا نسبة النصف من واحد في المائة من النشر في العالم. أما حال النشر الجامعي، فهو أكثر سوءاً ولا شك، وبحيث لا تتوافر حتى يومنا هذا إحصاءات دقيقة للإنتاج البحثي العربي في كل جامعة عربية. ونعرج على ملف آخر لا يقل أهمية هو مدى تفاعل مؤسساتنا الجامعية والبحثية مع ظاهرة النشر الإلكتروني كأحد مظاهر العولمة.

وهناك ملفات عديدة لا حصر لها تولدت عن ظاهرة العولمة ووجب على القائمين على مصائر وحظوظ التعليم العالي

العربي، معالجتها.

باتت العولمة واقعاً لا مفر من التعامل معه ، فليست هي بالفجر البازغ ، ولا بالفخ الخادع ، وعلى عاتقنا تقع مسؤولية العيش في ظل ما تفرض من قيود ، وما تتيحه من فرص.

ليس المطلوب الهروب من العولمة، فالعولمة ليست الشر المطلق الذي لا بد من أن نتجنبه، أو نتلمس نجاة منه. بل إنها مما يمكن أن نوجه تحدياته بإمكانيتنا ووعينا، وهي في بعض جوانبها تحتوي على إيجابيات قد تعود علينا بالنفع، إذا ما أحسننا تفهمها والانتفاع ببعض معطياتها .

والعولمة تحتاج منا أولاً وقبل كل شيء إلى الفهم العميق لقوانين العالم المعاصر وقواه، ومعارفه، وأدواته، وسبل الأداء الناجح في ميادينه، والاستجابة لتحدياته، وليست نجاة العرب والمسلمين والإسلام، بل والعالم كله بالابتعاد عن معطيات العصر وتجنب تحدياته؛ لأن العصر بكل بساطة وموضوعية يقتحم الباب علينا بقوة.

وإن إصدار حكم نهائي برفض العولمة يكشف عن تعجل في إصدار الأحكام غير تأمل في منطق التطور التاريخي ، إذ أن ثقافة العولمة أدخلت إلى المجتمعات البشرية سمات الحداثة والمعاصرة والتواصل والوحدة الكونية . فالهمم بالنسبة للأمة العربية أن تتدارس وتفهم طبيعة آليات العولمة ، كي تحدد ما تستطيع عمله للحد من تأثيراتها السلبية واقتناص فرصها وتعظيم فوائدها. فمن الضروري السعي إلى تأسيس كتلة اقتصادية عربية موحدة ، تولي اهتماما خاصا بالبعد الثقافي والتربوي للتنمية ، إذ يمكن تسهيل افتتاح الجامعات العربية على بعضها البعض ، وتبادل المناهج الدراسية ، وعقد ندوات ثقافية مشتركة . شريطة أن يتم ذلك في إطار التفتح وليس التزمّت والانغلاق ، لأن كل شيء مغلق لا يفتح على الآخر سيضر بمستقبل الأمة .

وبعبارة أخرى، فإن العولمة ترتبط أشد الارتباط بالثورة العلمية والمعلوماتية الجديدة ، التي تمثل أحد أهم معالم اللحظة الحضارية الراهنة ، بحيث يمكن القول أنّ العولمة والثورة العلمية والتكنولوجية هما وجهان لا ينفصلان لسباق تاريخي وحضاري واحد . إنّ العلم الذي نقل البشرية من طور إلى آخر هو الذي يقوم حالياً بخلق عالم جديد ولحظة تاريخية مختلفة كل الاختلاف عن كل ما هو قائم حتى الآن . لقد تحول العلم والثورات العلمية إلى قوة من القوى الكاسحة التي تصنع الأحداث وتشكل المستقبل وتعيد ترتيب أولويات الدول والمجتمعات والأفراد . فمن يمتلك هذه القوة، ويحسن توظيف نتائجها يمتلك أساساً مصيره ، ويعرف كيف يتدبر شؤونه ، ويتمكن من التأثير في الآخرين .

وفي زمن العولمة ، فإنّ طبيعة المخاطر المهددة للثقافة العربية لا تتعلق بعمليات العولمة وتداعياتها الثقافية والسياسية والاجتماعية ، بقدر ما تتعلق بمدى قدرة هذه الهوية الثقافية العربية على تجاوز أزمته ، خاصة ما يتعلق منها بالتنمية الشاملة وتوسيع إطار الديمقراطية ، وتعزيز مؤسسات المجتمع المدني ، وتفعيل قيم الحوار والتعددية ، وقبول الرأي والرأي الآخر ، وتوفير حرية البحث العلمي ، وإنشاء منظومة تربوية تقوم على تأهيل وإعداد كوادر تعليم عالية المهارات ، واحترام عقل المتلقي، وتوفير وسائل تمكنه من الاستيعاب الناقد للمعلومات والآراء وإبداع الأفكار ، واختصار الزمن في مناهجنا التعليمية، وإطلاق العنان للطاقت الشبابية في كل المجالات لكي تفكر وتبدع وتعزز ثقافتها بإمكاناتها .

ومن المنظور العالمي ، وبعد أن تداعى الاستقطاب التقليدي بين عالمي الرأسمالية والشيوعية ، ظهرت النزعة العالمية أو الكونية ، القائمة على الاعتماد المتبادل بين الشعوب والدول لمواجهة سطوة نظام عالمي جديد ، واحد ووحيد . فالتعددية التي يشهدها العالم بسبب تباين المراكز الاقتصادية العالمية التي تحولت إلى مراكز ثقافية متكافئة نسبياً ، تستبدل الاستقطاب الثنائي القديم بالتعددية الواعدة التي يتجاور فيها الشرق والغرب ، الشمال والجنوب ، وتبرز فيها الأدوار الأوروبية إلى جانب الأدوار الآسيوية ، ضمن سياق مختلف من توزيع الأدوار في ثقافات العالم التي أصبحت ساعية إلى تأكيد التنوع الخلاق .

ولعلّ التحدي الأكبر الذي يستوجب على المجتمعات العربية مواجهته هو التحكم في نقاط ضعفها نفسها وفي مقدمتها منظوماتها الإدارية والاجتماعية والثقافية ، واكتشاف هذه النقاط وإدراك النقائص والسعي إلى معالجتها دون عقد كبيرة . هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الفاعل التاريخي القادر على تحديد أهداف وبلورة استراتيجيات ، والدخول في تنافس أو صراع أو تفاهم مع الأطراف الدولية الأخرى ، أي نحو الوجود العربي على الساحة العالمية ، كطرف من بين أطراف أخرى لديه قدرة على المبادرة والفعل ، وبالتالي على انتزاع اعتراف الآخرين . فلا أمل اليوم لطرف في التأثير على مصيره الخاص ، إلا إذا نجح في أن يكون شريكاً مع الآخرين في التعاطي الإيجابي مع التحديات العالمية . فالمشاكل التي يعاني منها ، هي نفسها التي تعاني منها بقية المجتمعات ، ولا مجال لبلورة حلول ناجعة لها إلا من خلال منظورات إقليمية وعالمية .

إنّ مجابهة أخطار وتحديات ، وكذلك اقتناص فرص العولمة ، لا يتأتى من التنديد بها واعتبارها خطراً خارجياً داهماً ، بل بالبحث عن أسباب الضعف العربي الداخلي ومعالجته حديثاً للنهوض بالقدرة العربية إلى مستوى التطورات الجديدة والتعامل معها على أساس من التكافؤ والاقتدار في الميادين المختلفة

وفي ظل تحديات العولمة وسبل مواجهتها تتوقف عند سؤال هام:

هل نلجأ إلى عولمة التعلم أم إلى تعليم العولمة؟

إن المحافظة على بقائنا لا يكون بالاختيار الأول الذي يعبر عن موقف الاندفاع والهرولة واللحاق بالركب دون فهم لطبيعة ما يجري وما يمكن أن تؤدي إليه عولمة التعليم، والأصح أن نتوجه نحو تعليم العولمة، أي فهمها ومعرفة مبادئها وافترضاها والنتائج المترتبة عليها وتدريب أطفالنا وشبابنا على فنيات وآليات التعامل معها، وإدراك ما تتضمنه من تهديدات وفوضى، فالعولمة ليست شراً خالصاً، كما أنها ليست خيراً محضاً، وإنما شأنها شأن كل التحديات التي واجهت الإنسان طوال تاريخه تجمع بين المخاطر والإمكانات (٧).

ولا نريد أن نعتنق ثقافة العولمة بخبرها وشرها، وحلوها ومرها وما يحمدها وما يعاب، ولأنأخذ شيئاً إلا بعد عرضه على أسلوبنا في التفكير والنظر والاستدلال فما استجاب له قسناه، ولم نجد في ذلك أي حرج، وما استعصى علينا سعينا جهدنا في تصحيحه وتقويمه، ولم نكتف بمجرد نبذه واطراحه.

(٧) العولمة والتعليم بين عولمة التعليم وتعليم العولمة، د. فؤاد أبو حطب، ورقة عمل أقيمت في ضمن المؤتمر القومي السنوي الحادي عشر، ص ٦.

ومرشدنا في ذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم (الحكمة ضالة المؤمن)(١) وقال: (عز بن عبدا لسلام) في كتابه الفتاوى الموصلية "ص ١٣٤": "وليس كل مافعلته الجاهلية منها عن ملابسته إلا إذا نهت الشريعة عنه ، ودلت القواعد على تركه".

فمعرفة الإسلام اليوم كبيرة وخطيرة، وصار الإسلام بحاجة إلى من يعيش في سبيل الله أكثر من حاجته إلى من يموت في سبيل الله .

ونظراً لأن مصطلح العولمة له مفاهيم عدة منها العالمية فأرى أنه البديل الشرعي للعولمة ، ونشيدان العالمية في المجال الثقافي كما في غيره من المجالات طموح مشروع ورغبة في التعاون والحوار. ولم يكن الإسلام يوماً ما خصماً للعالمية بمعنى الانفتاح على الآخر، فالعولمة من أخص خصائص رسالة الإسلام لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٥٨] وقوله تعالى : (وكان النبي يعيثر إلى قومه خاصة، ويعيثر إلى الناس كافة) (٨).

ولقد وضع الله سبحانه وتعالى لنا طريق الرفعة وحكم الأرض ونشر الدين في آيات كثيرة من كتابه وأمرنا بنصره؛ حتى ينصرنا ووعدنا إن أقمنا الدين ليستخلفنا في الأرض وإن رغمت أنوف أهل الكفر والضلال، وأخبرنا - سبحانه - بأنه لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من البعد عن الدين، ومن ثم عبادته العبادة الحق.

وقد عبر عن ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله » .

وإن الميزان المادي في واقعنا المعاصر يقضي بتفوق الأعداء وانتصارهم وانتشار مبادئهم مثل العولمة وغيرها. ولكن سنن الله - تعالى - تقتضي بأننا إذا رجعنا نحن المسلمين إلى ديننا وإلى كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم فستكون الغلبة والعزة لنا مهما كانت مخططات الأعداء من عولمة أو نظام عالمي جديد أو رأسمالية أو غيرها.

وهذه هي أهم قضية يجب أن نعرفها ونسعى لتحقيقها ، ثم إن هناك مقترحات أخرى ينبغي لنا أن نسعى لتحقيقها في مواجهة العولمة المفروضة على البلاد والعباد بالقوة ولعل أهم هذه المقترحات هي:

١ . السعي لتوحيد صفوف الأمة الإسلامية ونبذ الخلافات والفرقة المنفشية بين المسلمين؛ حتى نكون صفاً واحداً بعبقيرة إيمانية واحدة.

٢ . الاستفادة من جميع الوسائل الإعلامية في الخطاب الإسلامي والدعوي على جميع المستويات وفي مختلف الميادين مثل؛ شبكات الانترنت والصحف والمجلات والفضائيات وغيرها.

٣ . نشر الثقافة الإسلامية والوعي بالدين بين أبناء المسلمين عن طريق المناهج الدراسية ووسائل الإعلام وتربيتهم على الاعتزاز بالانتماء للإسلام.

(٨) مسلم ٣٩٧/١.

صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً.

٤. السعي لنشر الإسلام وبيان محاسنه وفضائله وأنه الدين الحق الذي يصلح لجميع البشرية بواسطة القديسات الحسنه وجميع الوسائل الدعوية المتاحة وأنه المخرج من تحبطات الأديان.
٥. إعداد الأمة الإسلامية عقدياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً لمواجهة الأخطار والوقوف بوجه الأعداد عن طريق ترابط وتعاون الحكومات الإسلامية والعلماء والدعاة وأرباب الفكر والثقافة الإسلامية.
٦. بعث الحياة في مؤسسات التنسيق والتعاون الإسلامية مثل منظمة المؤتمر الإسلامي وجامعة الدول العربية.
٧. تنفيذ القرارات الإسلامية الكثيرة التي علاها الغبار مثل السوق الإسلامية المشتركة وإعادة النظر في الرسوم الجمركية وحرية انتقال البضائع والأيدي العاملة.
٨. إيجاد برامج ثقافية باللغة العربية، منافسة لبرامج الغزو الثقافي على جميع المستويات ولمختلف الأعمار تركز على العقيدة والثقافة والتاريخ والأدب الإسلامي مع مراعاة عناصر التشويق والجذب. وقد بما سئل الإمام (الزمخشري) - رحمه الله عليه - ما سر عشقك للغة العربية؟! قال الإمام: لأن القرآن سيد الكتب عربي، ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء عربي، ولسان الحق عز وجل يوم القيامة عربي!
٩. السعي للاستفادة من الخبرات العظيمة المتوفرة في بلاد المسلمين لكل المسلمين وعدم قصرها على فئة معينة أو السماح لأعداء الله تعالى بالاستفادة منها ونهبها وترك الفتات للمسلمين(٩).

الخاتمة

إن الحمد لله نحمده، ونشكره، ونثنى عليه الثناء كله وبعد..

فإن العولمة كغيرها من القضايا التي أنتجها الغرب فلا بد لأمة الإسلام من لم الشمل والاجتماع على الخير والعودة الصادقة إلى كتاب الله وسنة نبيه ونشر الدين بكل الوسائل المتاحة حتى يعم الخير على ربوع الدنيا ويزول الشر. بما يحمله من مكائد ودسائس.

ولا بد أن نتق بوعده الله تعالى لنا بنصره فهو القادر - سبحانه - ومنه نستمد التوفيق وعليه التكامل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.